# الغازيتة السودانية الحرة

FREE SUDAN GAZETTE

الغازيتة السودانية الحرة

العدد : الثاني
يناير - 2026

1,016 يوم من النزوح والصمود والالم .. تستمر ونستمر

منصة إعلامية رقمية مستقلة و مفتوحة المصدر
تعنى بتغطية الأخبار و التطورات في السودان

وتهتم بالبحث و التحقيق و توثيق الأحداث السياسية و الاجتماعية و الثقافية المتعلقة بالشعب السوداني في الداخل و الخارج .

# الخرطوم ٢٦ يناير: انكسار الإمبراطورية

القصر في الخرطوم حيث عاش وقتل الجنرال غردون – من أرشيف جامعة درامة السودانية

في السادس والعشرين من يناير من عام ١٨٨٥ لم تكن الخرطوم مجرد مدينة تُحرَّر، بل كانت رمزاً لوطن يستعيد إرادته وكرامته، وشعب يعلن رفضه الصريح لكل أشكال القهر والاستغلال. في ذلك اليوم الخالد، انتصرت الثورة المهدية بقيادة الإمام المهدي، لتسجّل واحدة من أعظم محطات المقاومة في تاريخ السودان الحديث، وتؤكد أن الشعوب حين تتوحد حول قضاياها العادلة قادرة على كسر قيود الاستعمار مهما طال أمده

لقد جاءت تلك الثورة استجابة طبيعية لسنوات من الجبايات الجائرة والضرائب الباهظة وسياسات الإفقار والتهميش التي فرضها الحكم الاستعماري المصري تحت الوصاية الإنجليزية، فكانت تعبيراً صادقاً عن غضب اجتماعي ووعي وطني مبكر، وعن توقٍ عميق للحرية والعدالة والاستقلال. ولم تكن معركة الخرطوم مجرد مواجهة عسكرية، بل كانت معركة وعي وإرادة وسيادة، أعادت رسم موقع السودان في خريطة العالم آنذاك

**في هذا الملف الخاص،** تفتح الغازيتة السودانية الحرة صفحات الذاكرة الوطنية لتعيد قراءة هذه اللحظة المفصلية من زوايا متعددة، تاريخية وفكرية وسياسية وعالمية، مستحضرةً دلالاتها في واقعنا المعاصر، .وربطاً بين مقاومة الأمس ضد الاستعمار الخارجي، ومعارك اليوم ضد الاستبداد والهيمنة الحديثة ويضم الملف إسهامات فكرية وبحثية متنوعة، من بينها مقال الأستاذ وليد علي أبو زيد الذي يتناول تشكّل السودان التاريخي وصولاً إلى الثورة المهدية بوصفها لحظة ميلاد الشعب السوداني الحديث، مركّزاً على دور الإمام المهدي في توحيد السودانيين بمختلف مكوناتهم تحت راية التحرر الوطني وربط التجربة المهدية بمشروع بناء الدولة الوطنية المعاصرة

كما يستعرض الملف محور الأصداء العالمية لتحرير الخرطوم المأخوذ من كتاب الدكتور محمد المصطفى موسى، موثقاً الصدمة السياسية والاقتصادية التي أصابت بريطانيا، وتفاعل الصحافة الأوروبية، واحتفاء الحركات القومية في إيرلندا وفرنسا بانتصار الثورة المهدية بوصفه ضربة موجعة للإمبريالية العالمية ويشارك الباحث أحمد آدم بمقال يتناول البعد الإمبراطوري لتحرير الخرطوم من زاوية الذاكرة العالمية، كاشفاً كيف دفعت هزيمة غردون المستعمرات الأسترالية لأول تدخل عسكري خارجي لها في السودان عام ١٨٨٥، ومبرزاً استمرارية السياسات العسكرية والتحالفات الإمبريالية حتى يومنا الحاضر، في قراءة نقدية تربط الماضي الاستعماري بالواقع الدولي المعاصر

كما يقدم الدكتور محمد الواثق عبدالحميد قراءة تحليلية لفلسفة الإمام المهدي في إدارة التغيير والتنوع، مبرزاً دوره القيادي وقدرته على توحيد المجتمع السوداني وتنظيم الثورة، مع تسليط الضوء على عبقرية اختيار أم درمان عاصمة للدولة المهدية بوصفه قراراً استراتيجياً أسهم في ترسيخ مشروع وطني جامع إن استدعاء هذه اللحظة التاريخية لا يهدف إلى تمجيد الماضي فحسب، بل إلى استلهام دروسه، وترسيخ قيم الوحدة والوعي والحرية، والتأكيد على أن مشروع التحرر الوطني لم يكتمل بعد، وأن معركة بناء السودان العادل والموحد تظل مسؤولية مستمرة للأجيال المتعاقبة

الحرة السودانية الغراء
FREE SUDAN GAZETTE

# الثورة المهدية... والسودان المنتظر

بقلم الأستاذ : وليد علي أبو زيد

Learn more by visiting our website

## رابندرانات تاغور١٨٦١ - ١٩٤١

برز السودان على خارطة العالم القديم والحديث عبر عملية تكوين طويلة وقد اتخذ السودان عدة أسماء عبر تاريخ البشرية فقد تمت الإشارة إليه في النصوص والنقوش المصرية القديمة والأكادية والبابلية والآشورية والفارسية وكذلك اليونانية والرومانية بعدة أسماء، أشهرها ما جاءت في كتابات المصريين القدماء مثل تا سيتي أي أرض القوس و تا نحسي أي أرض السود وهذه تسمية ترجمها اليونانيين القدماء بلغتهم وتنطق اثيوبيا أي ذوي الوجوه المحروقة. وجاءت أول إشارة لتسمية السودان بلفظ كوش في النطق المصري القديم كاش ووردت كوش في نصوص الآشوريين بنطق قوس وأما قدماء السودانيين أنفسهم فقد أطلقوا على دولتهم كوش وهي نفس التسمية والنطق الذي أخذه الكتاب المقدس التوراة و وصف به أرض السودان. و قد كانت كوش دولة كبيرة شملت شمال السودان وشرقه وجزء كبير من كردفان كما امتدت جنوباً الى جبل مويه بولاية سنار، حيث تنتهي الآثار الكوشية بآخر مواقع اكتشاف الفخار المروي الذي ينتمي للفترة بين ١٥٠٠ ق م إلى القرن الرابع الميلادي. دخل السودان بعد سقوط هذه المملكة حوالي ٣٥٠ م "في حالة فراغ سياسي كبير امتد الى ٢٠٠ عام وعرفت هذه الفترة بفترة المجموعة "إكس (عصر البطولة في سنار تأليف جاي سبولدنج ١٩٨٤)
انتهت فترة المجموعة إكس بظهور ثلاث ممالك اقتسمت أراضي كوش القديمة في العام ٥٥٠ م وهي الفترة التي عرفت بفترة الممالك النوبية المسيحية التي تشمل مملكة المريس (نوباتيا) و عاصمتها فرص ومملكة المقرة وعاصمتها دنقلا و مملكة علوة و عاصمتها سوبا و انتهت هذه الفترة بعد سقوط مملكة علوة عام ١٥٠٥ م

## (الممالك النوبية المسيحية تأليف الأب جيوفاني فانتيني ١٩٧٨)

كان العهد السناري بداية نظام سياسي مختلف ثقافيا حيث تربع الدين الإسلامي على عرش السلطة لأول مرة معلنا دخول السودان في التاريخ الإسلامي كدولة أو إمارة إسلامية. ولم يكن السودان أول الدول التي عرفت الحكم الإسلامي جنوب الصحراء وشرق أفريقيا حيث سبقته مملكة كانم (البرنو) ١٣٨٠ م وممالك الطراز الإسلامي في الحبشة والصومال مملكة شوا ومملكة عفت

و قد ظهرت في دارفور مملكة إسلامية مهمة عام ١٥٨٦ م و هي مملكة الكيرا كنجارا (سلطنة دارفور ١٥٨٦ – ١٨٧٤ م). ثم مملكة تقلي في جنوب كردفان وعدد من الممالك الصغيرة في شمال السودان مثل ممالك الدفار وأرقو والخندق والشايقية وممالك النيل الأزرق مثل فازوغلي وكيلي والبرون وكلها كانت تعتبر ممالك صغيرة ومحدودة التأثير الثقافي والاجتماعي والسياسي

## (السودان القديم كما وثقته النصوص القديمة تأليف عبدالقادر محمود ٢٠١٧)

ما يعرف بعهد "القيمان" في أواخر دولة الفونج يشبه إلى حد كبير حالة الفراغ السياسي التي عاشها السودان في فترة المجموعة "إكس"، بعد انقلاب الشيخ محمد أبو لكيلك على الملك بادي أبو شلوخ حوالي ١٧٦٢ م، رغم أنه قام بتنصيب ابنه المك ناصر ملكاً على سنار إلا أنه كان منصباً صورياً حيث انتقلت السلطة فعلياً إلى الشيخ محمد أبو لكيلك وهذا أدي لتدهور الدولة و تمرد أطرافها و توزع مراكز القوى فيها حتى انهارت تماما عام ١٨٢١ م بعد دخول القوات التركية المصرية فيما عرف في أدبيات مؤرخي تلك الفترة بالفتح التركي المصري السودان

و مع بداية العهد التركي عرف السودان نوع من الوحدة القاهرة الجبرية حيث قامت مصر الخديوية بضم كل هذه الممالك عبر سلسلة عمليات عسكرية امتدت منذ عام ١٨٢١ حتى ١٨٧٤. وقامت بضم ما كان يعرف ببلاد النيام نيام و تم تسميتها بمديرية خط الاستواء والتي هي دولة جنوب السودان حالياً، ثم إخضاع دولة الكيرا كنجارا عام ١٨٧٤ م. وهكذا استطاعت الخديوية التركية أن تقدم خريطة جديدة للعالم اسمها السودان الشرقي أو سودان وادي النيل

## نحو الوطن المنتظر

وجد السودانيين أنفسهم لأول مرة في تاريخهم شعباً له مصير مشترك، و لكنه كان شعباً أسيراً ومكبلاً ومحتلاً بقسوة وجبروت غير مسبوق في تاريخه. فالإنسان السوداني وعبر كل تاريخه كان يعيش بحرية واستقلال ثقافي واجتماعي، ولكن النظام الاستعماري الجديد كان له رأي آخر، حيث لم يكن يتعامل مع السودانيين كمواطنين بل كموارد اقتصادية يتم تسخيرها للجندية و للزراعة واحياناً كسلعة تباع و تشتري، حيث نشطت تجارة الرقيق وازدهرت في عهد التركية حتى أصبح السودان أحد أسوأ البقاع على الكرة الأرضية بالنسبة للبسطاء وغير المسلمين حيث يتم تبرير استعبادهم بحكم مكانتهم الطبقية المضطهدة و ايضاً دينهم غير المعترف به لدى المستعمر. وقد يفقد الإنسان حريته إذا عجز عن دفع الضرائب أو الدقنية وهي ضريبة تفرض على كل رأس في الأسرة يجب دفعها سنوياً وإلا يتم مصادرته شأنه شأن السلع و البضائع. وهكذا خرجت الأمثال التي تم ترديدها بين السودانيين تلك الفترة تعبيراً عن التذمر وهي (التربة ولا الطلبة) أي الموت و لا الوقوف أمام موظف الجباية، وايضاً (التركي ولا المتورك) أي التعامل مع الموظف الذي جاء من قبل الخديوية أفضل من التعامل مع السوداني الذي يعمل تحت إمرة هذا الموظف، وهو الموصوف بالمتورك أي المتشبه بالترك. وجدير بالذكر أن كلمة التركي لا يقصد بها من كان تركياً أصلاً و لكن من يمثل الحكومة التركية المصرية مهما كانت جنسيته من غير السودانيين فهو تركي و إن كان مصرياً أو شركسياً أو ألبانياً أو سورياً أو حتى أوروبي

## أب السودان المنتظر

في هذه الفترة العصيبة ولد على النيل السيد محمد أحمد عبدالله و هو الشخص الذي قدر له أن يقود حركة التغيير التي ادهشت العالم، و قامت بتعريف قدرة شعوب جنوب الصحراء الإفريقية على ميلاد نفسها بنفسها. حيث استطاع محمد أحمد المعروف بالإمام المهدي أن يعيد بعث الشعب السوداني من عالم النسيان إلى صدارة عناوين الصحافة العالمية، كمفجر حركة تحررية لها صداها في العالم الذي كان يرزح تحت الامبريالية الاستعمارية والصلف الأوروبي والعثماني.
قاد الإمام المهدي السودانيين لأول مرة في تاريخهم الضارب في القدم موحدين تحت راية قضية واحدة، وبالرغم من الطابع الديني لثورة الإمام المهدي، إلا أن غير المسلمين من الشعب السوداني استجاب لهذه الثورة فقد أخرج نبي النوير نغوندينق نحاسه المقدس دانغ و قام بقرعه بالعصا المقدسة (دي) التي وهبها له كوت الروح العظيمة ليعلن المهدي روحاً مقدسه واجب اللحاق بها، وهكذا اتجه مقاتلي النوير للحاق بالمهدي الذي كان يعسكر بقدير. وكذلك ثار الدينكا وأعلنوا انضمامهم للمهدي في قتال الاستعمار، وانضمت عشائر جبال النوبة للثورة مع نزول الملك آدم ود أم دبالو المهيب من الجبال تلبية لدعوة الحرية التي أطلقها المهدي. ولأول مرة في التاريخ كان هناك جيش يقف فيه الدنقلاوي والفوراوي والهدندوي والدينكاوي وكل قبائل الجهات الأربعة في السودان تحت راية واحدة

هذه الثورة تعتبر الميلاد الحقيقي للشعب السوداني، وبعيداً عن قضايا الحكم وما شابه من تشوه إداري لهذه الحركة السياسية الشعبية الكبرى في تاريخ أفريقيا، إلا أنها كانت نموذجاً بارع الجمال والكمال لتوحد شعب ضد قوى الاستعمار وضد الزمن أيضاً. حيث أن انتصارات المهدي في خلال ثلاث سنوات ما كانت سهلة المتابعة من صحافة العالم المتحضر حيث أرسلت كبرى المؤسسات الصحفية في العالم مناديبها لمصر ولسواكن لتغطية هذه الحركة التحررية المدهشة. وأصبح المهدي والشعب السوداني مصدر إلهام كبير للمفكرين والكتاب الباحثين عن الإصلاح في العالم. وقد ألهمت الثورة المهدية مفكري التيار التحرري و الاشتراكي في أوروبا أمثال إنجلز، ومفكري الإتحاد والترقي في تركيا أمثال أورهان ميريديتش، وايضاً القادة الثائرين مثل الثائر الصومالي محمد عبدالله حسن قائد ثورة الدراويش التحررية ١٩٠٠ – ١٩٢٠ م الذي اعتبره البريطانيون متأثرا بالإمام المهدي واطلقوا عليه لقب الملا المجنون وقاموا بقصف قواته وتدميرها بسلاح الطيران بعد أن قاتلهم ببسالة وشرف هم والطليان والحبش طوال عشرين عاماً

كان المهدي يوفي بوعده للعالم والسودانيين بميلاد السودان المنتظر، وهذا ما فسره المؤرخ فيرغس نيكول في كتابه "سيف النبي.. مهدي السودان وموت الجنرال غردون" الصادر في العام ٢٠٠٤ م بوصف المهدي بأنه الأب الحقيقي للشعب السوداني

قدم المهدي ورفاقه لوحة خالدة تعبر عن إرادة الشعوب حين تتوحد، ورسالة مقدسة بأن الحضارة والتمدن ليست أغلى من الحرية. وأن الاحتلال مهما طال فإنه لا محالة يعتبر طارئاً على تاريخ الشعوب وأنه ذاهب إلى الماضي مهما غرس أنيابه في جسد الحاضر

نبذت المهدية العنصرية و أذابت الفوارق العرقية، حيث أحلت فكرة الإيمان بالقضية مكان رابطة العرق والثقافة الاجتماعية، وهذا يعتبر إلى حد ما نوعاً من مرتكزات نشوء الدولة الحديثة التي تجعل الدولة القومية مكان الولاء الوحيد دون العرق و الدين. ورغم أن الفكر الديني كان هو روح وجوهر الثورة المهدية، إلا أنها أعطت نموذجاً لتوحد السودانيين في سبيل الحصول على الحرية، حتى لمن لا يدين بالإسلام من الشعب السوداني مثل أبناء جنوب السودان الذين قاتلوا مع المهدي و رفاقه

الآن و في هذه الحرب التي نعيشها كسودانيين قد أثقلتنا بالجراح والفرقة والكراهية بين المجتمعات، نستلهم ذكرى تحرير الخرطوم ودخول المهدي منتصراً ورفاقه، ثم تقديم السودان الذي كان منتظراً للمستقبل والتاريخ. سوداناً واحداً موحداً. فلأول مرة تحكم كافة الأراضي السودانية في الشمال والجنوب والشرق والغرب قيادة سودانية واحدة. واستحق بكل حقيقة لقب أب السودان. و رغم أن المهدي لم يعش بعد دخوله الخرطوم وتأسيسه عاصمته في أمدرمان إلا شهوراً معدودة، إلا أنه ترك إرثاً كبيراً لا يستطيع أن ينازعه في ضخامته عبر تاريخنا أحد من عظمائنا الأولين. و بدون أي شك فإن تلك القاعة التي يجتمع فيها أسلافنا في العالم الآخر، فإن الذي يتوسط مجلسهم هناك هو المناضل الثائر الكبير محمد أحمد المهدي ومعه رفاقه الذين قاتلوا كالشعراء المحاربين

وليد علي أبو زيد أكاديمي وباحث في التاريخ والثقافة السودانية

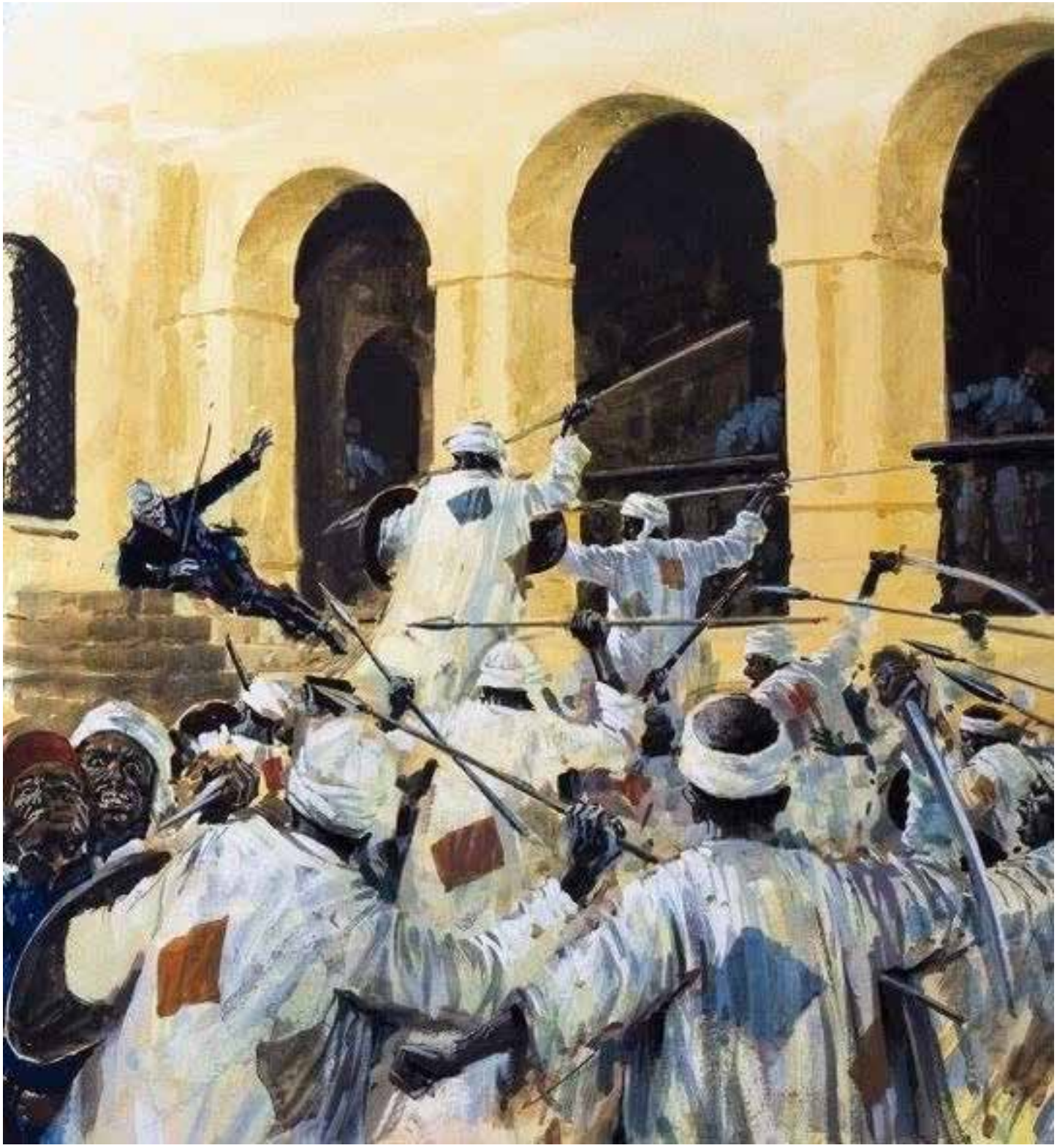

العمل بالوان الغواش للفنان الانجليزي
Graham Coton

الجريدة السودانية الحرة
FREE SUDAN GAZETTE

# الأصداء العالمية للثورة المهدية

مقتطفات من كتاب بنفس العنوان للكاتب
الدكتور محمد المصطفى موسى
تقديم: بروفسور عبدالله علي إبراهيم
الصادر عن دار المصورات للطباعة والنشر
٢٠١٩

---

Learn more by visiting our website

## من الباب السادس: الأصداء العالمية لموقعة تحرير الخرطوم

عندما أوشك العام ١٨٨٥ على الانقضاء، كانت رياحه الشتوية الباردة تملأ رايات الثورة المهدية المنغرسة في تراب العاصمة المحررة للمرة الأولى منذ خمسة وستين عاماً من الاحتلال الأجنبي. وبعيداً عن السودان الذي كان ترابه يغلي كمرجل ملتهب تحت أقدام البريطانيين، أُثقلت الجزيرة البريطانية بوطأة مريرة حين حمل ذات الشهر أنباء انتصارات السودانيين على قواتهم الغازية. وحلت هناك أخبار مقتل غردون المقترنة بـ الهزيمة المدوية التي تلقتها جيوش الامبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس كما تحل الصاقعة بوقعها المزلزل على أرض آمنة مطمئنة.واندفع الحزن المنكسر ببأسه الذي لايُصد ليغزو بوابات قصر باكينغهام رغم أنف حراسه الأشداء، ليزلزل عرش الملكة فيكتوريا التي تعلق قلبها بانتصارات متوقعة لجيشها المبعوث لإنقاذ غردون. وفي السياق ذاته، ليس هناك ماهو أكثر تعبيراً عما سبق بمثل ما دونه اللورد "بونسونبي" سكرتير الملكة الخاص من توثيق لتلك اللحظات التي شهدت تلقي صاحبة الجلالة لأنباء انتصارات المهدويين. فلنترك حيزاً مريحاً للمؤرخ البريطاني "روبن نيلاندز" لينقل لنا المشهد برمته على لسان سكرتير العرش الملكي

لقد كانت الملكة في حالة سيئة تماماً بعد " سقوط الخرطوم حتى بدت كالمريض المستلقي على فراشه. وكانت تتأهب للخروج للتو عندما أتانا تلغراف يحمل الأنباء. وعندما توجهت (الملكة) إلى مسكني الخاص، وقد تبدى على محياها الشحوب. هناك وجدت زوجتي التي أفزعها منظر جلالتها وهي بتلك الحالة وقد خاطبتها وهي ترتعش: " فات الأوان!" ... ثم يستطرد نيللاندز قائلاً: لم تكن الملكة وحدها! عندما وصلت أنباء مقتل غردون للندن .. عمت حالة الحداد جميع أنحاء بريطانيا ونُكست الأعلام واعلن ذلك اليوم كحداد قومي وسرعان ما تحولت حالة الحزن العام إلى غضب جارف موجه لرئيس وزراء بريطانيا غلادستون

[1]..«Late Too»

١ رسم حزين حاكى كلمات ذات العبارة التي وردت على لسان الملكة فيكتوريا: Too Late. ورد الرسم بمجلة «ذا بنش» اللندنية بتاريخ ٥ فبراير ١٨٨٥. وعلقت عليه الصحيفة بخبر مقتضب قالت فيه: «بحسب التلغراف الذي جاءنا بصباح الخميس ٥ فبراير ١٨٨٥: انتزع منا المهدي مدينة الخرطوم بينما لا يزال مصير الجنرال غردون غير مؤكد».

وتسيد القلق العميق كلمات صحف بريطانيا مهمة على غرار ذي مورنينغ بوست اللندنية، فكتبت تلك الصحيفة ذات الصيت الذائع بلهجة موغلة في البكائية عن ضرورة الرد على إهانات الثورة المهدية لكرامة بريطانيا في السودان بضربة عسكرية جديدة. وفي سبيل التأكيد على أهمية ما سبق تعرضت الصحيفة لما يمكن أن تشكله انتصارات الثورة السودانية من زعزعة لسيطرة بريطانيا الاستعمارية على بقاع مختلفة من العالم، منوهة في الوقت ذاته إلى أن ذلك الأثر الماحق قد يعصف بحكومة غلادستون نفسها، وفي ذلك قالت

إن الكارثة الهائلة التي حلت بنا في السودان ستتبعها آثار بعيدة المدى تدفعنا إلى أن لا نصدق أنه من" الممكن أن تبقى الحكومة البريطانية الحالية على مكتب الحكم لأبعد من أسبوع بعد اجتماع البرلمان القادم. لا يمكننا أن نتقهقر مديرين ظهورنا للمهدي وجحافله دون أن نضحي بسيطرتنا على مصر ومن دون أن تهتز جراء ذلك الدعائم التي تقوم عليها امبراطوريتنا في الهند. وبما أننا قد تورطنا في هذا الصراع فإنه يتوجب علينا المضي فيه. وبما أننا قد ذهبنا إلى السودان بالفعل، فإنه يتعين علينا إذن ألا نغادره إلا ونحن منتصرون

وظل ما نادت به الصحيفة اللندنية المار ذكرها مندرجا في سياق ما يمكن وصفه بالأماني العصية على التحقق عطفاً على حقيقة الموقف العسكري في شمال السودان. حيث أن قائد الحملة الإنجليزية المنسحبة بفلولها المثخنة بالجراح، لم يلبث أن تلقى خطاباً معبأً بالثقة يعث به المهدي – بعد فراغه من تحرير الخرطوم – لكل عساكر الحملة البريطانية مطالباً إياهم بالتسليم كما فعل من قبل مع غردون. وقد جاء في هذا الخطاب

وقد توجهت إليكم جنود اللّه ولا طاقة لكم بمحاربتهم، ولكن من باب الشفقة عليكم امرناهم ألا" يحاربوكم إلا بعد وصول هذا لكم وتحقق الإباء منكم عن الإجابة وألا يأذوكم ولا يتعرضوا عليكم في شئ من حقوقكم الخاصة إذا سلمتم ما عدا الميري والأسلحة والجباخين. فإن سلمتم عليكم أمان اللّه ورسوله وأمان العبد للّه". إلى أن يقول

"وإلا اذا خالفتم لا نقبل منكم صرفاً ولا عدلا، وسترون ما يحل بكم "

بيد أن اللورد ولزلي الذي قاتل جاهداً ليُلبس وجهه قناعاً من الكبرياء الزائف إزاء كل ما حدث، لم يستطع بأي حال أن يخبئ ما كان يتصعده من حنق ومرارة، على الأقل في مستوى دائرة مقربيه من الخواص. ذلك أنه لم يلبث أن كتب لزوجته "لويزا" بعد أيام قليلة من وصول كتاب المهدي إليه، مقراً بشراك الثورة السودانية الذي أحاط بهم من كل جانب، وفي ذلك كتب

"!لقد انتصر المهدي .. وها نحن نبدو جميعاً .. كالأغبياء"

وارتدت على ولزلي تقديراته الأولى المتيقنة بحتمية انتصاره على مقاومة السودانيين في أرضهم حين جزم بأن أي عملية عسكرية بريطانية للتقدم أمام قوات الثورة المهدية الآن بغرض استرداد الخرطوم من سيطرتهم ستكون "أخطر عملية عسكرية في بريطانيا منذ موقعة وترلوو الشهيرة ضد الفرنسيين بقيادة نابليون". وطالب ولزلي بتعزيزات عسكرية كبيرة من لندن .. قدذر البرلمان البريطاني تكلفتها بما يقارب الأربعة ملايين ونصف من الجنيهات الإسترلينية. بيد أن رئيس الوزراء البريطاني "غلادستون" الذي صعقته انتصارات الثورة المهدية، اتجه لوضع حد لهذه المواجهة الخاسرة حين قال مخاطباً البرلمان: "هل يوجد هناك أي مبرر أخلاقي يجعلنا نهدر أرواح هذا العدد الضخم من قواتنا في ظل الوضع الحالي لإمبراطوريتنا وما يكتنفه من حوجة ماسة لتلك القوات. إننا نحارب أمام طبيعة قاسية في السودان كما أنه ليس بوسعي أن أخفي عليكم خشيتي من تورطنا في مقاتلة شعب يسعى نحو التحرر. لقد تم اثبات ذلك بجلاء خلال ما حدث بهذا البلد

## وجاء في صحيفة " بيري اند نوريتش بوست

ليس هنالك مراقب واحد ممن اعتادوا على رصد تحركات القوى المسيطرة على قرارات مجلس الوزراء" البريطاني .. سيحمل في نفسه أدنى شك على أن مساجلات يوم الإثنين الفائت قد أوضحت بجلاء أن أمر التصميم على سحق المهدي في الخرطوم قد انتهى إلى موت كامل مشابه للموت الذي فرض نفسه على يوليوس قيصر. مهما كان من ضرورة ملحة لدينا لتحطيم قوة المهدي في الشهر الذي سبق، فإن الضرورة قد باتت اعظم ما تكون في هذا اليوم تحديداً. ولكن وزراء الحكومة البريطانية اكتشفوا أن هذه العمليات ضد المهدي ستكون مكلفة وطويلة المدى وبدرجة أكثر أهمية، غير مجمع عليها وسط مسانديهم. وتبعاً لذلك تبخرت كل بطولاتهم. هؤلاء الوزراء الذين قرروا بتهورطائش الحاق الهزيمة الساحقة بالمهدي في الخرطوم من قبل، ها هم أنفسهم يدرسون بقلقٍ بالغ كيف يمكنهم الهرولة هرباً قبل أن يسحقهم المهدي

## وجاء في ذي بول مول غازيتة

"من النادر أن يجتمع البرلمان الإنجليزي تحت سماء أكثر اظلاماً مما هي عليه اليوم "

في اللحظة التي سقطت فيها مدينة الخرطوم كما كان متوقعاً بحسب الإنذارات الكثيرة التي تلقتها" الحكومة البريطانية منذ الصيف السابق، شهد الوضع هناك تحولاً كبيراً. وتبعاً لذلك تحول المهدي من مجرد متمرد على نفوذنا في أواسط أفريقيا إلى زعيم معترف به لكل القبائل العربية في وادي النيل. علينا أن نتذكر ما خطه الجنرال غردون بيده حين قال: (في اللحظة التي سيبسط فيها المهدي نفوذه على الخرطوم فإن مهمة سحقه ستصبح في غاية الصعوبة. ومع ذلك فإن سلامة مصر قد تدفعكم لتنفيذ هذه المهمة). هاهو المهدي يؤكد بشكل كبير كل مخاوف الجنرال غردون. فبدلاً من الجلوس راضياً في الخرطوم بعدما فتحت له أبواب المدينة بعامل التواطؤ، هاهو يأخذ زمام المبادرة بالتقدم مهاجماً في اتجاهنا. وفي هذه اللحظة تحديدا يقال أنه يتقدم تجاه طابور جيشنا الهزيل بستين ألفا من جحافله المنتصرة المكونة من أعراب السودان وقد برز هو لقيادتها بنفسه. لقد أخذ الوضع برمته شكلاً ثورياً كاملاً".

في كل مدن مصر ستسري موجة من الشعور العام بإمكانية قيامهم بما قام به المهدي في السودان. " وكما قام هو بطرد الدخلاء والكفار فقد يكون بوسعهم إنجاز ما قام به من عمل. لقد قام المهدي بإثارة حالة خطرة من الهياج ضدنا في الجزيرة العربية وسوريا. وتم بالفعل توزيع منشورات بهذا الخصوص بداخل دمشق تدعو إلى الثورة ضد الأتراك سعياً لطردهم من تلك البلاد. وإذا خضع كل شرق السودان للمهدي فإنه من الممكن أن تقوم كل القبائل العربية بساحلي البحر الأحمر بحمل السلاح لذات الغرض. وإن لم يتم فعل شئ في هذا الخصوص، فإنه من الممكن جداً أن يؤدي انتصار المهدي علينا لإعادة فتح مسألة الشرق ككل "من جديد

## أصداء انتصارات الثورة المهدية في دواوين الاقتصاد البريطاني

لا شك أن الخسائر التي تكبدها البريطانيون جراء انتصارات الثورة المهدية عليهم لم تكن على مستوى الميدانين العسكري والسياسي دون غيرهما من الميادين. فقد دونت صحافة بريطانيا تفاصيل مستفيضة عن كيف هزت معركة تحرير الخرطوم وما تلاها من أحداث عاصفة..عرش مداولات الأسهم في أسواق المال البريطانية وما ترتب على ذلك من خسائر اقتصادية امتدت بأثرها لأسواق المال الأخرى الواقعة تحت نفوذهم الاستعماري على نحو مصر على سبيل المثال. نكسات اقتصادية كهذه، لم تكن لتتأخر كثيراً في أعقاب دخول المهدي ظافراً للخرطوم مع توقعات موضوعية اعتملت بباطن الذهن الجمعي الإنجليزي بتقدم قواته شمالاً لدحر فلول القوات البريطانية الغازية ومن ثم التوغل نحو مصر من جنوبها لتهديد "مصالحهم الاستعمارية في المنطقة. وفي ذلك تحديداً كتبت صحيفة "لندن دليلي نيوز

بعد وصول تلك الأنباء المحزنة من الخرطوم، هبطت مؤشرات كل اسواق المال ما عدا مؤسسة "غراند ترنك"" التي سجلت هي الوحيدة ارتفاعاً دون غيرها. أسواق المال المصرية تعرضت بالطبع لأثقل الخسائر، بينما كان الهبوط في رأس المال الحكومي البريطاني من أكثر الملامح العامة خطورةً في هذا الشأن. وعلى الرغم من أن الخسائر البريطانية لم تكن بنفس ثقل الخسائر المصرية بحساب النسب المئوية إلا أن الهبوط في قيمة السندات البريطانية صار بما يعادل ثلاثة ملايين من الجنيهات الإسترلينية من حيث قيمة البيع بينما عانت السندات المصرية من هبوط في قيمة البيع بمقدار بنصف المقدار الذي عانت منه السندات البريطانية. وهذه التقديرات الجامحة جداً في هذا الوقت تحديداً جاءت مواكبة للصعوبات الحالية وما صاحبها من تكاليف "اقتصادية أثرت بدورها على سعر الفائدة الإنجليزي في الشرق بأكمله

واتجهت صحيفة "ذي مورنينغ بوست" اللندنية نحو الإشارة إلى فداحة خسائر أسواق المال البريطانية بعد وصول ما أسمته ب "الأنباء الكارثية القادمة من السودان حول سقوط الخرطوم" إلا أنها ذكرت أن هناك تعافياً ما حدث لاحقاً بهذا الخصوص على الرغم من تأكيدها بأن أسعار المداولات بقيت في حدها الأدنى تماماً بأحسن الأحوال. وأشارت الصحيفة ذاتها إلى أن مداولات أسواق المال العالمية الأخرى بقيت ضعيفة المستوى أيضاً بينما ألقت الهزائم البريطانية في السودان بظلالها على مداولات أسهم مؤسسة السكة حديد الإنجليزية في لندن وفي شمال غرب إنجلترا وكذلك بسوق المال الإنجليزية ب "كريستال بالاس" الذي شهد الخسائر الأثقل مما أدى إلى إيداع ذهباً قيمته مائة ألف من الجنيهات الاسترلينية لتغطية تلك الفجوة

واستكمالاً لما يمكن إتباعه من موضوعية لتقدير الخسائر التي كبدتها مقاومة الثورة المهدية للجحافل البريطانية الغازية، يبقى من المهم هنا إفساح المجال واسعاً للغة الأرقام التي تمسك بحقائق الأشياء بما يليق بذلك من الدقة. وفي ذلك السياق نجد أن عدة مصادر إنجليزية قد قدرت المبلغ الكلي الذي صرفته حكومة الملكة "فيكتوريا" ورئيس وزرائها "غلادستون" لتجهيز الجيش البريطاني المبتعث للسودان لمواجهة الثورة المهدية وإنقاذ غردون، قد قفز من ثلاثمائة ألف من الجنيهات الإسترلينية عند بداية الحملة إلى سبعة ملايين ومائتين وستة وثلاثين جنيهاً إسترلينياً في نهاياتها

وإذا علمنا أن الدخل القومي البريطاني لذلك العام ١٨٨٥ كان يناهز الـ ٧٧ مليوناً من الجنيهات الإسترلينية، فإن المعادلة الرقمية هنا تؤكد أن الخسائر التي كبدتها الثورة المهدية للاقتصاد البريطاني برمته في العام ١٨٨٥ قد بلغت رقماً قارب الـ١٠٪ من الدخل القومي البريطاني بذات السنة. و بحسابات أكثر تحديداً، يستبين جلياً أن إنفاق الحكومة البريطانية على حرب السودان قد فاق الـ ٣٧٪من الميزانية الكلية المخصصة للجيش الملكي البريطاني في العام ١٨٨٥ والبالغ قدرها ١٩ مليوناً و ثلاثمائة وخمسة وخمسين ألفاً من الجنيهات

## إيرلندا.. القوميون الايرلنديون يحتفون بتحرير الخرطوم

في السواحل الأخرى المقابلة لإنجلترا، ظل القوميون الايرلنديون يتطلعون لأنباء الثورة المهدية بحماسة وثقتها العديد من المصادر المتباينة. وليس من الصعب على العقل البحثي إدراك مبعث ذلك الشغف بأصداء انتصارات السودانيين هناك عطفاً على رزوح الجزيرة الإيرلندية تحت نير الاحتلال البريطاني لما قارب الثمانمائة سنة متتابعة لم تخل من مقاومة شعبية عنيفة للنفوذ الاستعماري دون أن يكتب لها النجاح الكامل. وجنح القوميون الإيرلنديين الذين تصاعدت أصواتهم الثائرة آنذاك على تاج الملكة فكتوريا، نحو وسائل إبداعية مختلفة للتعبير عن احتفائهم وانتصارات الثورة المهدية على عدو اعتبره جلهم بمثابة العدو المشترك للشعوب المتطلعة للحرية. وبرع الرسامون القوميون الايرلنديون في توظيف الرسوم الكاريكاتورية الساخرة للتعبير الخلّاق – على طريقتهم – عن إعجابهم بما حدث في السودان. ومن ذلك أن صحيفة "ويكلي فريمان" ذات الولاء القومي الإيرلندي المعروف قد أقدمت على نشر رسم كاريكاتوري ساخر بتاريخ ٢٣ فبراير ١٨٨٤ .. يعرب في مجمله عن غبطة القوميين بتلك الأحداث ويظهر في الكاريكاتير غلادستون رئيس الوزراء البريطاني وهو ينحني أمام المهدي والذي بدى بدوره شامخاً وهو يحمل رمحاً وراية كتب عليها "الحكم الوطني" ! وأجرى الرسام حواراً قصيراً بين الزعيمين.. خاطب فيه غلادستون من انحناءته تلك قائد الثورة السودانية قائلاً: "عزيزي المهدي.. إن حجتك التي دفعت بها لاستقلال بلادك كانت من القوة بمكان بحيث أنني أصبحت لا أجد مبرراً للتدخل في شأنكم الداخلي وبالتالي تقبل قراري بحصولكم على حريتكم" .. بيد أن الرسام نفسه أجرى على لسان محمد أحمد المهدي رداً ساخراً لابد أنه تنزل على قراء الصحيفة الإنجليز بما يليق بكلماته الافتراضية من الانقباض.. ورد كما يلي: "احتفظ بقرارك لمن يحتاجه.. فنحن في غنى عنه.. الآن أنتم من يحتاجون لكي نقبل حتى نسمح لكم بالمغادرة لأوطانكم!"

كاركاتير إيرلندي يحتفي بانتصار المهدي على البريطانيين ويسخر من قلة حيلة رئيس وزراء بريطانيا، غلادستون، حيال انتصارات السودانيين على قواته..صحيفة «ويكلي فريمان»الإيرلندية، ٢٣ فبراير١٨٨٥، أرشيف الصحافة الإيرلندية.

و لم يتقادم على نشر ذلك الكاريكاتير ب "ويكلي فريمان" سوى أيام خمسة قبل أن يتبعه رسام الكاريكاتير برسم آخر بالصحيفة نفسها، غالى فيه من سخريته "Hea'O Fergus John" الإيرلندي المعروف جون فريغس أوهيا من نداءات الأوساط الرسمية البريطانية لسحق ثورة المهدي، فاستدعى ما انتهت إليه الأشياء من مفارقات حين استدرجت القوات البريطانية نحو تولية الأدبار أمام تعقب قوات الثورة السودانية في صحراء الشمال. وقد تمثل ذلك بوضوح في ذلك الرسم الكاريكاتوري الذي يبدو فيه ولزلي قائد حملة الإنقاذ البريطانية وهو يعدو هرباً وقد ترك من خلفه جثث جنرالاته الذين قضى عليهم السودانيين على نحو "ستيوارت" و"ايرل" و قد توسدت جثامينهم رمال الصحراء .. وبدا ولزلي مثقلاً بالذعر وقد تعقبه محمد أحمد المهدي بسيفه وكاد أن يهوي به إلى عنقه

رسم ساخر بريشة الفنان الإيرلندي جون فيرغس أو هيا «John Fergus O'Hea» يجسد انهزام البريطانيين أمام قوات الثورة المهدية في شمال السودان. وفيه يظهر المهدي وهو يهوي بسيفه على الجنرال «ولزلي» قائد قوات الجيش البريطاني المبتعث لإنقاذ غردون في الحملة التي روّج لها البريطانيون تحت عنوان «سحق المهدي..Smashing the Mahdi» فانتهت بعكس عنوانها!. وانتهى كل شيء بفرار جحافل الإنجليز امام قوات الثورة المهدية كما يجسد ذلك الرسم الساخر.. أرشيف الصحافة الإيرلندية، «Weekly Freeman»، ٢٨ فبراير ١٨٨٥.

الأديبة والكاتبة المسرحية المعروفة بتوجهها القومي.. الليدي "أوغستا جرجيوري" والتي اعتبرت ما قامت به الثورة المهدية في السودان بمثابة الثأر للايرلنديين عما ذاقوه من ويلات بفعل احتلال البريطانيين لأراضيهم. أصدرت الليدي جرجيوري كتيباً عن تلك الأحداث.. تصدرته عناوين نارية على غرار "ها نحن نحطم الوحش البريطاني: يد المهدي تأخذ لنا بثأرنا فيما وراء البحار .. ونحن نحطم ذات الوحش بالديناميت في الداخل

أما على مستوى الصحافة الإيرلندية، فقد تصدت صحيفة "وورلد آيريش" إجلاء الغبار عن أحداث السودان لتنقل أخبار تحرير مدينة الخرطوم بأيدي سودانية فخصصت صفحاتها الرئيسية بالكامل لأخبار السودان.. وفي ٧ فبراير ١٨٨٥ كتبت ذات الصحيفة: "إن الثورة السودانية الباسلة تستحق التعاطف الكامل من كل أصدقاء الحرية في شتى بقاع العالم". كل ذلك تزامن مع تقارير متعددة أصدرتها صحف إيرلندية مختلفة على نحو "آيريش أمريكان" و "جورنال فريمان" و "آيريشمان" اتفقت معظمها – بحسب كلمات المؤرخ الإيرلندي نيال ويلهان – على أن انتصارات الثورة المهدية على البريطانيين ستضعف الإمبراطورية البريطانية بأسرها

ولم يلبث محررو "آيريشمان" كثيراً قبل أن ينخرطوا في قراءة تحليلية عميقة لأصداء انتصارات الثورة السودانية على بقاع مختلفة بما في ذلك فرنسا والإمبراطورية البريطانية نفسها. ومن ذلك أن عدد الصحيفة الصادر في صبيحة ١٤ فبراير ١٨٨٥ قد تصدر صفحاته تقرير مطول عن أحداث السودان الأخيرة تحديداً. واستعانت "آيريشمان" في متفرد، بآراء متفرقة من مقدمة ذلك التحليل الذي اقتربت فيه من تفاصيل الأشياء بقدر صحافة فرنسا التي احتفت جميعها بلا استثناء بانتصارات الثورة السودانية على الإنجليز. ومن ذلك ما أورده ذات التقرير عام نشرته صحيفة "لا ريبابليك فخانسي" من انتقاد لاذع لسياسة البريطانيين العالمية التي جعلت امبراطوريتهم أشبه بنعامة تدس رأسها في الرمل حتى لا تعلم شيئاً مما يمكن أن يسيئها من أنباء. وجنحت الصحيفة الفرنسية إلى تشبيه انتصار المهدية البين على بريطانيا بالنور الساطع الذي لن يجديها تجاهله أو تناسيه

الغزالية السودانية الحرة
FREE SUDAN GAZETTE

# خرائط البقاء

## الإمبراطورية – الذاكرة – وحرب أستراليا في السودان

بقلم : أحمد آدم

Learn more by visiting our website

FREE SUDAN GAZETTE



## El Mahdi to the Australian Troops.

And wherefore have they come, this war-
like band,
That o'er the ocean many a weary day
Have tossed; and now beside Suakim's Bay,
With faces stern and resolute, do stand,
Waking the desert's echoes with the drum—
Men of Australia, wherefore have ye come?

To keep the Puppet Khedive on his throne,
To strike a blow for tyranny and wrong,
To crush the weak and aid the oppressing
strong!
Regardless of the hapless Fellah's moan,
To force the payment of the Hebrew loan,
Squeezing the tax like blood from out the
stone?

And fair Australia, freest of the free,
Is up in arms against the freeman's fight;
And with her mother joined to crush the
right—
Has left her threatened treasures o'er the
sea,
Has left her land of liberty and law
To flesh her maiden sword in this unholy
war.

Enough! God never blessed such enter-
prise—
England's degenerate Generals yet shall rue
Brave Gordon sacrificed, when soon they
view
The children of a thousand desert's rise
To drive them forth like sand before the
gale—
God and the Prophet! Freedom will prevail.

EL MAHDI.

في قلب مدينة ملبورن الأسترالية، وتحديدًا في شارع سبرينق، بالقرب من مبنى البرلمان. ينتصب تمثال يلفت الأنظار بسبب الحيّز الكبير الذي يحتله، غير أنّ تاريخه ودلالاته يظلان مجهولين لدى معظم المارّة. يخلّد هذا النصب ذكرى الجنرال البريطاني تشارلز غوردون، الذي لم تطأ قدماه أستراليا قط، غير أن مقتله في السودان دوّى صداه في أرجاء العالم الإمبراطوري، بما في ذلك المستعمرات الأسترالية. يمكن النظر إلى هذا التمثال لا بوصفه مجرد نصب تذكاري لجنرال خدم الإمبراطورية في الصين والهند والسودان، و لكن كجزء من جغرافيا إمبراطورية كانت تربط ملبورن ولندن والخرطوم ضمن اقتصاد استعماري مشترك

أُرسل غوردون إلى السودان للدفاع عن السلطة الإمبراطورية أثناء انتفاضة المهدي. في لحظة بدا فيها أن الثقة البريطانية بامتدادها الاستعماري العالمي لا يمكن زعزعته. غير أنه وبحلول مطلع عام ١٨٨٥، وجد غوردون نفسه معزولًا في الخرطوم، محاصرًا بقوات تقاوم الحكم الإمبراطوري. وفي منتصف كانون الثاني / يناير أرسل إحدى آخر برقياته إلى لندن، محذرًا من أنه سيُقتل إذا لم تصله التعزيزات. وبعد عشرة أيام، في ٢٦ كانون الثاني / يناير ١٨٨٥، حررت قوات المهدي مدينة الخرطوم وتم قتل غوردون. في أرجاء بريطانيا ومستعمراتها، لم يُعاش هذا الحدث بوصفه هزيمة عسكرية فحسب، بل كشرخ في السلطة الإمبراطورية ودليل على أن الإمبراطورية يمكن مقاومتها وإجبارها على التضعضع من أطرافها

انتقلت الصدمة سريعًا حول العالم، وإن لم تُحَسّ على نحو متساو. ففي حين ناحت بريطانيا ومستعمراتها على مقتل غوردون بوصفه مأساة إمبراطورية، قرأ آخرون الحدث بصورة مختلفة. ففي أجزاء من أوروبا، بما في ذلك إيرلندا، جرى الاحتفاء بهزيمة الإمبراطورية علنًا، وكتب شعراء عن الخرطوم باعتبارها لحظة إذلال للامبراطورية. تكشف ردود الأفعال المتباينة عن عالم إمبراطوري كان قد بدأ يتشقق بفعل المقاومة، والانتماء المشترك، ورفض الخضوع. وخلال أسابيع، أرسلت مستعمرة نيو ساوث ويلز قوة عسكرية إلى السودان في أول انتشار خارجي لقوات استعمارية أسترالية، محوّلة أزمة إمبراطورية بعيدة إلى حدث محلي. ولم تكن مغادرة هذه القوات حدثًا باهتًا؛ فقد أعلن في سيدني عن اليوم كعطلة عامة

تجمّع الآلاف قرب الميناء لتوديع الجنود، وازدحمت الشوارع والأرصفة في طقس جماعي للانتماء الإمبراطوري. تصف الصحف مدينة تعجّ بالأعلام والخُطب والهتافات حتى ليبدو وكأن كل من هبّ ودبّ اندفع إلى المركز، يصرخ بالتشجيع بينما كان الجنود يصعدون إلى السفن. وكانت الصيحة التي تكررت في الحشد : "اذهبوا وأعطوا المهدي ما يستحق" تُجسّد السهولة التي جرى بها احتضان العنف البعيد بوصفه واجبًا أخلاقيًا. عسكريًا، لم يحقق فيلق نيو ساوث ويلز الكثير، وعاد من دون أن يغيّر مجرى الصراع. ولكن، وبفضل عدد محدود من القطع المحفوظة في الصرح التذكاري الحربي الأسترالي في كانبيرا، تبقى الحملة حاضرة بوصفها سابقة رمزية: تمرينًا مبكرًا على مشاركة أستراليا في حروب خارجية تُخاض في خدمة قوى إمبراطورية أكبر. وما بدأ كولاء للإمبراطورية البريطانية سيُعاد تشكيله في القرن العشرين عبر التحالف مع الولايات المتحدة، في استمرارية لا يُعبّر عنها عبر السيادة، و لكن عبر التبعية. والتى تجلّت بأوضح صورها في إنشاء قاعدة "باين قاب" إحدى أكبر منشآت الجيش والاستخبارات الأميركية استراتيجيةً خارج الأراضي الأميركية. وهكذا ما بدأ كولاء استعماري لبريطانيا سرعان ما تردد صداه في الجغرافيا السياسية المعاصرة، كاشفًا كيف أن الحروب البعيدة، والتحالفات الأجنبية، والبنى التحتية المحلية تتشابك منذ زمن طويل مع دور أستراليا في شبكات الإمبراطورية العالمية

الاستعمار ليس فصلًا مغلقًا، بل حالة مستمرة. فارسال القوى والمعينات العسكرية، سواء في عام ١٨٨٥ أو اليوم، يحمل عواقب تتجاوز الاستراتيجية وفن الحكم. ففي أستراليا، كانت الهياكل ذاتها التي مكّنت المشاركة في الحروب الخارجية، هي نفسها التي دعّمت السيطرة على حياة السكان الأصليين ونزع أرضهم. إن الاعتراف بهذه الاستمراريات لا يختزل التواريخ في تماثل واحد، ولكن يبرز الطرق المختلفة التي مارست بها الإمبراطورية توسعها وهيمنتها. وفي نفس الوقت مقاومة السكان الأصليين سواء في استراليا، أو السودان. الذين يقف صمودهم علامة دائمة على ما لا تستطيع الإمبراطوريات محوه بالكامل

إن قراءة ما حدث في العام ١٧٨٨ إلى جانب عام ١٨٨٥ يكشف كيف عملت الإمبراطورية عبر الكوكب. منتجةً الغزو عند طرف، والأزمة عند طرف آخر. ففي أستراليا، شهد العقد ذاته تكثيفًا للسيطرة الاستعمارية على حياة السكان الأصليين. وخلال ثمانينيات القرن التاسع عشر، تسارع نزع ملكية أراضي السكان الأصليين، وتوسّعت المحميات والبعثات التبشيرية، وراحت الحكومات تفرض سلطتها على الحركة والعمل والحياة الأسرية، مُكرِّسة لأذىً وإقصاءً دائمين. وهكذا، كان صمود السكان الأصليين في أستراليا والمقاومة المناهضة للإمبراطورية في السودان يحدثان داخل العالم الإمبراطوري نفسه، تم اختبارهم بطرق غير متكافئة، ويتم تذكّرهم على نحو مختلف، لكنهم متصلين بنيويًا. ويكشف السياقان معًا أن المقاومة والبقاء لم يكونا استثنائيين، بل سمات مركزية لنظام إمبراطوري قائم على الهيمنة والسيطرة. وعلى هذه الأرضية المشتركة، يمكن أن نتتبّع الخرائط التي رسمتها الإمبراطورية لا في المعارك والمعاهدات فحسب، بل في الاستراتيجيات اليومية لأولئك الذين صمدوا، وتكيّفوا، ورفضوا أن يتم استئصالهم ومحوهم من ذاكرة التاريخ

غياب حرب السودان عن الذاكرة الأسترالية ليس أمرًا عرضيًا. فهذه الحرب تحتل موقعًا غير مريح داخل السرديات الوطنية التي تفضّل تخيّل أستراليا إما بوصفها موقعًا بريئًا معزولًا، أو شريكا مترددًا في الإمبراطورية. واستذكار فيلق نيو ساوث ويلز يقتضي الإقرار بأن تشكّل أستراليا كان مشتبكًا ليس فقط مع العنف ضد السكان الأصليين في الداخل، بل مع العنف الإمبراطوري في الخارج. لقد جرى تطبيع الغزو بوصفه استيطانًا، في حين نُسيت الحرب الإمبراطورية بهدوء. وما يبقى ظاهرًا هو نصب تذكارية مجرّدة من سياقها

وتزداد ضرورة نبش هذه الذاكرة البعيدة في ضوء النقاشات المعاصرة حول دور أستراليا في الصراع الحالي في السودان. فقد أثيرت مناقشات عامة وبرلمانية حديثة مخاوف بشأن نظام تصدير الأسلحة الأسترالي، بما في ذلك الموافقة على تصاريح تصدير عسكرية إلى دولة الإمارات العربية المتحدة التي ثبت تورطها في الصراع السودانى. ورغم اختلاف الآليات عن تلك التي سادت في القرن التاسع عشر، فإن النمط الكامن يظل مألوفًا: عنف بعيد، ومصالح اقتصادية، واصطفاف استراتيجي مع رأس المال المهيمن

إن تذكّر تواريخ أستراليا المنسية من فيلق نيو ساوث ويلز إلى التواطؤ المعاصر، ليس تمرينًا في التماثل أو المحاسبة الأخلاقية البسيطة. إنه إصرار على أن هذه التواريخ متشابكة، وأن محوها يخدم مصالح بعينها. ليست المهمة أن نرث الخرائط التي رسمتها الإمبراطورية، بل أن نتعلّم نسيانها. وفي مواجهة التقاويم الإمبراطورية والحشود الإمبراطورية، تشيرحركات المقاومة نحو مستقبل مختلف، مستقبل لا يُنظَّم عبر الهيمنة والمساحات، بل عبر الصمود والتضامن، والعمل غير المكتمل من أجل السلام

أحمد آدم فنان متعدد التخصصات، تمتد ممارساته لتشمل صناعة الأفلام، والتصوير الفوتوغرافي، والكتابة

جنود من كتيبة نيو ساوث ويلز في صحراء السودان

يحمل بعض الجنود بنادق مارتيني هنري، ويظهر خلفهم مدفع رشاش من طراز RML Mkl عيار ٩ أرطال. الجندي في مقدمة الصورة على اليمين يقف أمام جهاز تصوير شمسي.

الجريدة السودانية الحرة
FREE SUDAN GAZETTE

# فلسفة الإمام المهدي

## في إدارة التغيير التنوع وأثرها في انجاح الثورة المهدية ١٨٨١-١٨٨٥

بقلم : د. محمد الواثق عبد الحميد الجريفاوي

Learn more by visiting our website

لاتوجد صورة فتوغرافيا للإمام المهدي، فمجموع الصور هي رسومات تقريبية لغنانين أجانب

## مدخل

### أولاً : أهمية تحرير وتفكيك مصطلح المهدية

من المهم جداً الانتباه لذلك ، حال كنا نريد الخوض في قراءة جديدة وبمنهج مختلف للمهدية، إلى التفرقة بين المصطلحات المرتبطة بالمهدية : الدعوة المهدية وإمامها ، الثورة المهدية وقائدها ، الدولة المهدية وتفاعلاتها . ومن المفيد لضرورات البحث والتناول التفرقة بينها و( فكفكتها عن بعضها ) ، صحيح أن الدعوة كانت حاضرة في النشاط اليومي للإمام ، إلا أن ربطها موضوعياً بالحراك الثوري للمهدي مضر بحيث تكون هناك صعوبة في اقتراح إجابات لها القدرة على الصمود أمام الاختبارات المنهجية

ثانياً : ضرورة التفرقة في التعاطي مع تاريخ المهدية – الدعوة ، الثورة

في إطار التعاطي مع تاريخ المهدية، السؤال الجوهري الذي يقفز الى الذهن ، هل نتعامل مع المهدية دعوةً (مرتبطة بصاحبها) مثلها مثل الرسالات السماوية ، أم نتعامل معها كإجراء مرتبط بـ ( سلوك وبرنامج عمل ) (وتفاعلها) مع مجتمعها و حركتها وفاعليتها؟
وتذهب هذه الورقة إلى استنتاج إجابة سريعة مفادها، أنه وفي سعينا لتقديم رؤية مختلفة من خلال (القراءة الجديدة) لتاريخ المهدية أن نتعامل معها في إطارها الإجرائي والحركي الفاعل و بقراءة موضوعية للنشاط الثوري لقائدها

اختلاف الزمان وغياب المعطيات ( الذاتية ) المرتبطة بالقائد المركزي .. يجعل من الواجب الاعتماد في اعادة انتاج الدور الذي لعبته المهدية كحركة تفاعلية. ، وان نعيد طرح المهدي قائداً وطنياً أتفق حوله الناس حينها ... وان لا نقعد (بديناميكية) الثورة بغلقها و (حبسها) داخل (جدلية مهدية محمد احمد) ولا الاستغراق أسرى (لانطباق) شروطها واشتراطاتها، ويجب الاعتراف بأن (محمد احمد) (مهدياً ) غائب ومنتهي .. ولكن، برنامجه الثوري (موجود) وقابل للتطويع وفق مقتضيات الزمان والمكان .. ويمكن الاختلاف معه وتجاوزه . وفق مقتضيات الحال والأوان .. (فالأمر دنيا) وفلسفة حكم وإدارة وفق مقتضيات الحال
أن ينظر الأنصار إلى المهدية (كعقيدة) وفق منظار (مأموريتها) و (إنزال) برنامج تلك المأمورية وفق أدوات الواقع المرتبطة (بالدعوة) ، وأن ينظر كل السودانيين الى وطنية قائدها و (استدعاء دوره (الحركي) وادارته الفاعلة للثورة

## منطلقات مفاهيمية

أولاً : الجميع يبحث عن ( تاريخ ) في ظل عالم صار يهتم بالثقافة وعناصرها، و(التاريخ ) بهذا المفهوم يعتبر أحد العناصر المهمة وذكر أحد البحاث أن هناك من يحاولون صنع تاريخ من (لا شيء) ! فكيف بنا نحن وتاريخنا ضارب الجذور ... لكن إشكالنا المنهجي (هو التعاطي عاطفياً ) مع التاريخ وفق إسقاطات ومطاعن ومظان وأحكام مسبقة

ثانياً : انه ليس في استطاعتنا تغيير حوادث التاريخ !!! ولكننا نملك – كل الحق في – إعادة قراءتها، لا لإعادة إنتاجها بل لفهم واقعنا واستشراف مستقبلنا

ثالثاً : وعلى الرغم من أنه قد قدمت الكثير من الانتقادات للمنهج التاريخي على اعتبار أنه لا يصمد وحيداً لتقديم أطروحات ذات نتائج تصلح للتعميم حيث لا بد من المزج بينه وبين أحد مناهج البحث العلمي المتبعة في الدراسات الاجتماعية او السياسية . إلا أن ابن خلدون قد تغلب على مناهج دراسة التاريخ الجامدة والتي لا بمعنى عدم الوقوف عند ( para history ) يمكن أن تعطينا تعميمات بأن ابتدع منهج دراسة باطن التاريخ التوثيق والتأريخ للحوادث بل يجب الولوج إلى أسبابها ومسبباتها وذلك بدراسة كل العوامل المحيطة بها سواء داخلية أو خارجية الداخلية المرتبطة بالدراسة الذاتية للأشخاص الفاعلين وكذلك دراسة الواقع الاجتماعي والاقتصادي والتاريخي

رابعاً : عدم إسقاط معايير الواقع على التاريخ : بمعنى أن نقوم بالنظر إلى كل ما هو مرتبط بهذا الموضوع من خلال الحكم عليه بمعايير زمنه وظروفه ومعطياته لأن الحكم على التاريخ بمعايير الواقع فيه إجحاف وظلم ومجافاة للعلمية

## مبحث أول : إشكالات دراسة سيرة الإمام المهدي

تبرز العديد من الإشكالات عند الخوض في دراسة تاريخ الثورة المهدية وبخاصة سيرة الإمام المهدي، منها ما هو مرتبط بالمنهج ومنها ما هو متعلق بالمصادر

### إشكالات المنهج

كثير من الدراسات التي تناولت الثورة المهدية طرحت أفكارها بمنهج تاريخي توثيقي، دون أن تذهب إلى تقديم دراسات شاملة تستصحب معها مجمل العوامل الموضوعية (من حيث التأثير والتأثر

وحتى تلك التي حاولت الولوج تحليلاً في أسباب قيامها ونجاحها حصرت العوامل - مع موضوعيتها - في العنف الذي صاحب الغزو التركي للسودان وبخاصة انتقام الدفتردار لمقتل إسماعيل ابن محمد علي حاكم مصر ، إلى جانب الضرائب الجائرة وطريقة جبايتها القهرية ، وللعديد من الممارسات المرتبطة بالعقلية الاستعمارية التركية

أما من جهة النجاح فقد ذهبت جل تلك الدراسات إلى أن العامل الرئيسي هو ضعف الإدارة التركية وفقدانها السيطرة على الأمور وتقليلها من شأن الثورة والتعامل معها في بداياتها

على الرغم من أن تلك الدراسات تناولت المهدي بوصفه قائد الثورة في إطار التوثيق التاريخي للأحداث التي صاحبت الثورة وتلك المرتبطة بشخصه، إلا أنها لم تفرد فصولاً لتناول مقدراته الذاتية في تحريك وقيادة الثورة واحتوائه لكل العوامل والظروف وإعادة إنتاجها بصورة تبرز قدراته الذاتية والشخصية وتفجيرها بما حقق له النجاحات الكبرى

كما أن منهج الدراسات التي تناولت المهدي كانت : إما منهجاً هجومياً حاول نفي صفة المهدية عنه وبذلك تسقط كل دعواه وما أنبنى عليها ، أو منهجاً دفاعياً حاول إثبات صفة المهدية عليه حتى تكون سنداً قوياً لنجاحاته. ولكن كلا المنهجين أضرا بسيرة ذلك الرجل حيث انصرف الباحثون عن دراسة شخصية المهدي وركزوا جل اهتمامهم بالمهدية وأسانيدها وشروطها ومدى انطباقها على الرجل

وهناك أشكال آخر ارتبط بسيرة الرجل وهو تحول الإمام المهدي من رمز وطني إلى رمز سياسي – في السابق وفي الوقت الحاضر – حيث كان المهدي قائداً لثورة قامت ضد المستعمر ومصالح الجماعات المرتبطة بذلك الاستعمار ولهذا كان من الطبيعي قيام دعاية مضادة له جعلت منه مركزاً لهجوم العلماء واختلاف الناس عليه

ثم صار رمزاً سياسياً لما (للتقسيمة الفطيرة) لما عُرف (بأبناء البحر وأبناء الغرب) وفق الفرز الجهوي الضيق للصراع الداخلي الذي حدث بعد وفاته

ثم صار المهدي رمزاً لطائفة الأنصار وحزب الأمة

وهذا الأمر كله صار خصماً على رصيد الرجل من اعتباره رمزاً وطنياً

لذلك لا بد أن يكون منهج قراءة سيرة هذا الرجل ، لا من واقع تسلسل زمني كيفما درجت الدراسات التاريخية التي تتناول السير الذاتية ، بل من خلال نظرة موضوعية تحاول الربط المنطقي بين المقدمات والنتائج بتحليل علمي للأحداث ووضع كل منها تحت عنوان يكون مقدمة لنتيجة تاريخية حدثت

## إشكالات المصادر

قلة الدراسات : ذكر البروفيسور قاسم عثمان نور أنه في عام ١٩٨١ في فترة الإعداد للاحتفال العالمي بالعيد المئوي للثورة المهدية بحث في مكتبة جامعة الخرطوم وجد أن هناك أربعون كتاباً تتناول سيرة غوردون ولم يجد كتاباً واحداً يتناول سيرة الإمام المهدي

**شفاهية المعلومات :** ولعله من الإشكالات الكبيرة المرتبطة بالمصادر هي غياب مصادر لدراسة الإمام ( المهدي قبل الثورة ، عدم وجود معلومات عن المهدي قبل مهديته ، وجل ما تم جمعه فهو ( محكي وانعكس ذلك على كثير من الدراسات التي اعتمدت على مصادر الشفاهية والنقل والحكي الشعبي وهي بذلك تعد مصدر (مضطرب) في ظل تمجيد الإمام المهدي من عامة الناس وسرد حكايات وخوارق عنه على الرغم من أن تلك الدراسات قد وثقت تلك الإفادات في حواشيها إلا أنها تظل مصدراً ثانوياً، وكما هو معلوم بالضرورة أن الاعتماد على المصادر الثانوية في الدراسات التاريخية يعتبر ضعفاً منهجياً يقدح في أصالتها

المصادر الاستخباراتية والحربية المكتوبة : الأشكال الآخر هو ذلك المرتبط بالوثائق التي غالبا ما كانت مكتوبة في شكل تقارير استخباراتية في ظل واقع حربي وعسكري ، وكتابات عدائية

## مبحث ثان : فلسفة الامام المهدي في إدارة التغيير والتنوع

### المقدرات الذاتية للإمام المهدي

بعد إعلان الإمام محمد أحمد المهدي للمهدية ووقوع معركة الجزيرة أبا وانتصاره فيها أصبح المهدي قائداً ذو مسئولية (مزدوجة) مهمة (فكرية) تتمثل في الدفاع عن فكرته و(عسكرية) تتمثل في قيادة مقاتلين ضد الحكومة الاستعمارية. هنا تجلت عبقرية القيادة وظهرت القدرات الذاتية والشخصية للمهدي في التعامل مع المعطيات الموضوعية المحيطة وذلك بقدرته فائقة على الربط المنطقي بين الحقائق على ساحة معركته الفكرية والعسكرية حوله

### الكاريزما

كان محمد أحمد يتصف بالعناد والتصميم والاندفاع الحماسي نحو الأمور التي يتصدى لها ويمضي في الطريق حتى نهايته. وقد اعترف له أعداؤه بهذه المسألة، يقول القس أهرولد الذي سجن عشر سنوات في زمن الدولة المهدية عن "المهدي": "كان مظهره الخارجي قوي الجاذبية، فقد كان رجلا قوي البنية، سحنته تميل إلى السواد، ويحمل وجهه دوما ابتسامة عذبة، وأسلوبه في الحوار حلو وسلس

ويروي ونجت باشا –مدير مخابرات الجيش المصري– عن قدراته الخطابية فيقول: "إن الرجال كانوا يبكون ويضربون صدورهم عند سماع كلماته المؤثرة، وحتى رفاقه من الصوفية لم يخفوا إعجابهم به، وليس في "شكله ما يثير إلا عندما يبدأ الوعظ، وعندها يدرك المرء القوة الكامنة فيه التي كانت تدفع الناس لطاعته

ويقرر المؤرخ السوداني د. محمد سعيد القدال ذلك بقوله: "لقد توفرت لمحمد أحمد صفات متميزة أهلته للقيادة في مجتمع السودان في القرن التاسع عشر، فهو صوفي زاهد يحظى بتقدير الناس ويهرعون إليه طلبا للغوث والبركة، وهذه هي الصفات الأساسية للقيادة في ذلك المجتمع، ومكنته دراساته المتنوعة من امتلاك قدرات علمية ولغوية واسعة، وله جاذبية (كاريزما) يؤثر بها تأثيراً قوياً على من حوله، وتضافرت كلها مع نشاطه العلمي وقدراته الذهنية فرفعت درجات وعيه الاجتماعي مما قاده إلى فكرة المهدي المنتظر التي كانت تضج بها جنبات المجتمع، ورأى نفسه الشخص المؤهل لحمل أمانتها

## المعرفة التامة بالسودان

تنقل المهدي قبل الإعلان عن دعوته في كثير من بلاد السودان، فقد انتقل جنوباً مع أسرته إلى الخرطوم من أجل التجارة وصناعة المراكب، ثم إلى أبا ثم تنقل في باحثاً عن العلم لدى المشايخ والطرق الصوفية ثم بعد أن أصبح من كبار الشيوخ في السودان عهد إليه شيخه بإعطاء الطريقة السمانية ونشرها في البلاد فجاب البلاد طولها بعرضها لهذا الغرض

هذا الأمر جعل المهدي يلم تماماً بطبيعة أرض معركته ويتعاطى مع تلك الطبيعة بقدرة فائقة
الفهم العميق لأحوال السودانيين
نتيجة طبيعية للمعرفة التامة بالسودان كان للمهدي فهم عميق جداً لأحوال السودانيين وهمومهم ونفسياتهم ولعل ذلك وضح في التكتيكات السياسية التي اتخذها المهدي والطريقة التي اتبعها في تعامله مع قواده وجنوده

## الاستراتيجية في التنظيم العسكري

اتخذ المهدي استراتيجية عسكرية رائعة وفق مراحل الصراع مع الحكومة مستهدياً في ذلك بالسيرة النبوية في الدعوة الإسلامية فقهاً وحركةً . ويمكن هنا الإشارة بصورة سريعة لتلك التكتيكات الإستراتيجية

## الدعوة السرية

الهجرة اختيار منطقة جبال النوبة (العمق الإستراتيجي
اختيار مكان المعركة أبا، شيكان
حرب العصابات – حملة هكس باشا
إدارة المعركة استخبارات المؤكدة - سياسة الأرض المحروقة - ردم الآبار - الحرب النفسية
تكتيك الحصار والاستنزاف حصار الأبيض، حصار الخرطوم

وهذه الأمور كانت مقدمات لنتائج واضحة وبينة وثابتة تاريخياً تتمثل في الانتصارات الحربية المتعاقبة للإمام المهدي التي أحرزتها الثورة المهدية

## مبحث ثالث : فلسفة الامام المهدي في إدارة التغيير

المهدي قاد حركة تغيير كبيرة جدا بمعايير ذلك الوقت استهدف بها الدين والمجتمع ونظام الحكم وفي هذا الاتجاه يمكن أن تبرز العديد من الشواهد

### الشاهد الأول : يظهر في الإيمان بعملية التغيير في حد ذاتها

فالمهدي تجاوز مجتمعه ولم يقدم نفسه كجزء من المجتمع الذي يعيشه واقعاً . بل قام بطرح نفسه كصورة أو جزء من المجتمع الذي يتصوره ويرغب فيه لنفسه ولأتباعه

كذلك المهدي منذ صغره كان يجنح للتغيير ويتضح ذلك في رفضه للعمل في مهنة أسرته التي كانت تمتهن صناعة المراكب ، ونجد أنه قد تنقل في العمل في التجارة والاحتطاب كما روت العديد من المصادركذلك يظهر حب المهدي للتغيير تنقله بين الشيوخ لاكتساب العلم، وقد ظهر ذلك في تنقله في أجزاء كثيرة من السودان مما اكسبه معارف متعددة المصادر ومكنته من معرفة الكثير من الناس والتعرف على أحوال البلاد، الأمر الذي ساعده بصورة كبيرة في تكوين تصوراته لإدارة التنوع.

### الشاهد الثاني : امتلاك أدوات التغيير

المهدي كان مؤمناً ايماناً كاملاً بالتغيير ومقتنعاً بضرورته للإصلاح. وكان المهدي قائداً حازماً وحاسماً، وكانت لدى المهدي القدرة على الإقناع والتأثير في الآخرين، ويمتلك ثقافة عالية جداً ويجيد الخطابة، وكان قدوة حسنة ، ويشكل الربط بين القول والفعل حضوراً طبيعياً في ممارسته الحياتية اليومية . وكانت لديه معرفة كبيرة بالرجال قدرهم وقدراتهم

الشاهد الثالث : أن المهدي قدم نفسه في اعلى مراتب الصوفية ( المهدية ) وطرح نفسه قائداً ملهماً

المهدي وضع تصور للتغيير بما في ذلك إصلاح مؤسسة الصوفية نفسها ، وقد حكم على كل المجتمع بناء على تلك الرؤى ولم يستثن من ذلك الحكم على شيوخه ومعلميه

المهدي لم يأتي بجديد أو شاذ عندما مناداته بالمهدية

الجو النفسي الشعبي كان لا يرفض ومهيئاً لقبول فكرة المهدي المنتظر

المهدي هيأ نفسه تماماً لهذا الدور ، حيث كان صوفياً ملتزما

وإن كنت أري أن يتم تحييد هذه الفكرة في أي دراسة موضوعية تتناول المهدية ، فالمهدية فكرة دينية تحوم حول المنقذ الذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، وهي محل خلاف استغرق جهداً كبيراً بين الفقهاء نفياً وإثباتا.

إلا أنه يمكن ملاحظة المردود الإيجابي لفكرة المهدية في بعدها السياسي وأثرها على خلق رابط جمعي ساعد المهدي على إدارة التنوع ، حيث استطاع المهدي وبذكاء شديد ( تجيير ) الدعوة إلى خطاب عقدي جمع حوله كلمة وطرح نفسه كقائد ملهم لجمع الأتباع حول خطاب واحد مقبول ، وبالتالي خلق أرضية لوحدة نفسية بين الأتباع

رباط روحي بينه وبين الأتباع سهل من الانقياد الطوعي

وحدة نفسية بين الأتباع سهل من وحدة ومركزية قائدهم

التفاف الناس حول قائد ملهم يصدق في القول والفعل وإيمانهم به

لب الفكرة ( الأخاذ ) في بعدها الاجتماعي والسياسي الذي يقوم على إزالة الظلم وإقامة العدل

قدرة المهدي بوصفه ( قائد ) على القيام بأمور تقفز على الواقع سهلت له التأثير المباشر على ( أتباعه ) ومكنته من السيطرة والتوجيه

### الشاهد الرابع : الاعتماد على قيادات جديدة

المهدي وفي سبيل ادارة التغيير نجده قد اعتمد على قيادات شابة وجديدة، لم تكن أرقاماً في المجتمع ولكنها آمنت به وبرؤيته في التغيير

## مبحث رابع : فلسفة الامام المهدي في إدارة التنوع

بالنظر للواقع الاجتماعي في السودان– قبل الثورة المهدية – كان متنوعاً ويحتوي على كثير من المتناقضات وروابط الانتماء المتمثلة في القبيلة ، الطريقة الصوفية ، العلاقة مع الحكومة (مع – ضد) ، طبقة الأغنياء والفقراء ، مجتمع سمته الأساسية التفرقة ، وعوامل الربط أقل بكثير، مجتمع تلعب فيه الطريقة الصوفية الدور الأهم وتتفوق في ذلك على القبيلة

في هذا الإطار يمكننا ملاحظة العديد من الشواهد التي انطلقت منها فلسفة الإمام المهدي في إدارته لذلك التنوع والإختلاف

### الشاهد الأول : المعرفة التامة بأحوال البلاد والعباد

تنقل المهدي في البلاد باحثاً عن العلم ، وفي بعض الأحيان للعمل . كذلك طوافه في البلاد لإعطاء الطريقة الصوفية

كل ذلك جعله لا يجد صعوبة في فهم طبيعة البلاد ونوعية العباد و إدراكه لواقع التنوع وبالتالي تبلور فلسفة التعاطي معه

## الشاهد الثالث : إيجاد معايير جديدة

تمثل المعيار الأول في مركزية القيادة الروحية بحيث شكل المهدي الشخصية المركزية للثورة قائداً وملهماً

والمعيار الثاني تمثل إيجاد مفاهيم الجديدة للتمايز بين الجماهير ،فجعل الترتيب بالإنتماء للدعوة المهدية ( أبكار المهدية ، أنصار أبا ، أنصار تقلي

المعيار الثالث تمثل في لا مركزية القواد بمعنى أنه يختار الرجل المناسب للمهمة المناسبة ، فكان يختار لقيادة أي مجموعة رجل منها وكان يختار لأي مهمة رجل من ذات المنطقة المطلوب تنفيذ المهمة

والملاحظة الجديرة بالإشارة إليها هي أن المهدي كان يختار لأي مهمة في جهات الجزيرة والشمال قائد معروف عنه صوفيته ، وأي مهمة في الغرب أو الجنوب كان يختار لها قائد له مكانته في قبيلته

## مبحث خامس : عبقرية اختيار أم درمان

الثابت أنه لا يمكن تغيير حوادث التاريخ ولكن يمكن النظر إليها باعتبارها مقدمات لنتائج شاخصة أمامنا، ومن هذا الفهم يمكننا النظر لمدينة امدرمان من خلال مقدمات الاختيار والتكوين وشواهد التخلق والتمازج

لعل أم درمان (بهذا الفهم) هي الدليل الأبهى لإسقاط فلسفة الإمام المهدي في إدارة التغيير والتنوع ، لذا من يمكن القول بكل جرأة أن اختيار المهدي أم درمان لتكون عاصمة لدولته – على الرغم من توفر خيارات حية لمناطق لعبت أدوراً كبيرة وشهدت أحداث مفصلية في مسيرة ثورته – جاء من رؤية عبقرية وثاقبة ، سبقتها مقدمات ارتبطت بإيمان المهدي وقناعته بالتغيير سبيلاً ، وفلسفته في إدارة التنوع منهجاً. وأنعكس ذلك في نتائج شاهدة على تلك القناعة والرؤى ، بحيث تجسدت كل معاني الوحدة والتمازج وانعكست نتائج ومظاهر ذلك - نموذجاً – على كل المراكز الحضرية الأخرى

ويتطلب هذا التناول التطرق إلى عدد من الحقائق لتشكل في مجملها صورة واضحة لمآلات عبقرية الاختيار

**الحقيقة الأولى :** أنه لم يثبت عن الإمام المهدي أنه ذكر سبباً لإختياره أم درمان ، وبالتالي يكون المجال مفتوحاً أمام كل التحليلات المستندة على حقائق أو وقائع ثابتة . والإدعاء المشهور بأن ناقته هي التي اختارت المكان قول فطير لا يصمد أمام حادثات أخرى . ولا يخرج من الأقوال التي تصور كثير من الكرامات الخارقة للمهدي

**الحقيقة الثانية :** هي أن المهدي يعرف أم درمان معرفة جيدة ، فقد عاش في تلك المنطقة فترة ليست بالقصيرة ، حيث جاء مع أهله للشيخ الطيب ( راجل امرّحي ) ثم انتقلوا للخرطوم ، والمهدي بطبيعته كان ميالاً للخلوة والتنقل من مكان لمكان ، وبذلك ، لا يستبعد أن يكون في ترحاله بين الشيخ الطيب ومنطقة الخرطوم أن يكون قد مر بكل الشريط الغربي لنهر النيل القائمة فيه أم درمان حالياً . لهذا يمكن القول بإن الإمام المهدي اختار أم درمان بامتدادها الساحلي القديم لتكون مدينة المستقبل في السودان من بعده عن معرفة ودراية بطبيعتها الجغرافية وعن علم تام بسكانها

**الحقيقة الثالثة :** أن المهدي إن أراد أن يستمر (رجل دين) أو (فكي)، فكان من الممكن ان يعود للجزيرة أبا التي اشتهر فيها في هذا المجال ، او الذهاب الى منطقة الحلاوين التي كان فيها الرجل الثاني بعد شيخه القرشي ود الزين ، لكنه أراد أن يحدث كما أسلفت ثورة في الدين ، لهذا أراد أن يكسر شوكة ومفهوم الصوفية ورجالات الدين التقليديين لذلك كان يخاطب أهل الطرق بضرورة العودة (تغييراً) إلى مفاهيم الدين الصحيحة

**الحقيقة الرابعة :** أن المهدي إن كان يهدف الى ملك أو قيادة قبيلة ، فكان من الممكن له أن يختار أهله في الشمال ، أو أن يختار الغرب الذي ناصره ليحكمه من الأبيض أو بارا

**الحقيقة الخامسة :** العبقرية الإستراتيجية لاختيار أم درمان ، من الناحية العسكرية والإستراتيجية ، المهدي يعتبر الغرب عمق استراتيجي له ، حيث انه من امدرمان ناحية الغرب لا توجد عوائق طبيعية مثل الأنهار أو الجبال التي تعيق حركته إن استدعى الأمر الانسحاب غرباً . وثبتت تلك الفرضية عند انسحاب الخليفة غرباً بعد موقعة الشرف والكرامة في كرري

ومن الناحية التأمينية الداخلية فنهر النيل يشكل حائط صد طبيعى يكشف كل من يحاول عبور النهر إلى أم درمان من الجهة المقابلة لها ، وقد برز هذا بشكل كبير في صد هجوم قوات كتشنر عبر استخدام الطوابي

كذلك يشكل شلال السبلوقة عائق طبيعي لأي قوات متحركة عبر النهر ، والجبال والتلال التي حوله في تلك المنطقة تشكل مكامن جيدة للمناوشة مع القوات البحرية أو القوات البرية التي تحرس البواخر النيلية يمكن للبعض – وهذا متاح لهم – القول أن هذه الرؤية قد لا تصمد أمام حوادث التاريخ ، وخاصة بعد وفاة المهدي والتحديات التي واجهت الدولة المهدية

ودون الدخول في تفاصيل القيود التي يمكن أخذها على الدولة وقادتها ورجالاتها ، نجد أن هذا الأمر كان عارضاً بطبيعة التحولات السياسية التي حدثت ، بدليل أن النموذج الاجتماعي والثقافي قد أخذ في النمو الطبيعي وفق معطيات التخلق الأول فتشكلت الحركات الوطنية المناهضة للاستعمار بنفس فلسفة إدارة التنوع ومعايير التغيير التي كانت عند الإمام المهدي ، ونمت الثقافة الجامعة التي شكلت المرجعية المشتركة بتطور طبيعي وسلمي فرضته طبيعة الإنسان في التعايش ، وبالتالي أنتجت ثقافة مركزية شكلت موثقاً قوياً – في كثير من الأحيان – أمام الردة الى ثقافة القبيلة والطريقة الدينية

فهل لنا من أمدرمان جديدة تقينا شرور الردة ومهاوي الفتنة العرقية والدينية التي تلوح في الأفق القريب !!!!؟

## خاتمة من بعد منطلق

### ليس في استطاعتنا تغيير حوادث التاريخ

ولكن كل منا يملك – كل الحق – في النظر إليها برؤى جديدة وإعادة قراءتها من خلال مناهج جديدة ، لا بقصد محاولة إعادة إنتاجها، بل باعتبارها (ضرورية) لفهم واقعنا و (لازمة) لاستشراف مستقبلنا

# العمل الإنساني

## كرت أحمر

https://www.facebook.com/share/17trFXJzkV/?mibextid=wwXIfr

https://www.paypal.com/donate/?hosted_button_id=UPNBD5RNN2BBN

https://gofund.me/985c8f63

## فوطة تسد الخانة

https://www.facebook.com/share/1C6uc8YUog/?mibextid=wwXIfr

## خرطوم ايد كتشن

https://www.khartoumaidkitchen.org/

https://www.gofundme.com/f/fight-hunger-in-sudan-the-khartoum-kitchen-appeal?utm_campaign=p_cp+fundraiser-sidebar&utm_medium=copy_link_all&utm_source=customer